



رابطة العالم الإسلامي

الأمانة العامة

الإدارة العامة للمؤتمرات والمنظمات

الثقافة : لغتها واصطلاحاً حدودها وأبعادها

إعداد

الدكتور جمعة شيخت

أستاذ التعليم العالي بجامعة تونس

مقدم إلى مؤتمر مكة المكرمة الخامس عشر
الثقافة الإسلامية.. الأصول والمحاورة

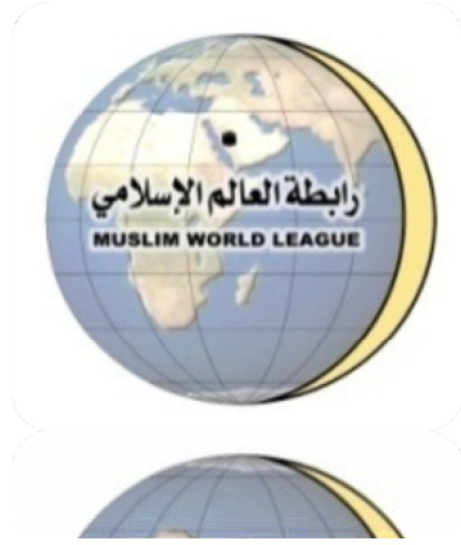
الذي تنظمه

رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة

٤-٦ / ذو الحجة / ١٤٣٥ هـ

٢٨-٣٠ / سبتمبر / ٢٠١٤ م



رابطة العالم الإسلامي

مكة المكرمة - المملكة العربية السعودية

صندوق البريد (٥٣٧) أو (٥٣٨) مكة المكرمة (٢١٩٥٥)

هاتف: ٠٠٩٦٦١٢٥٦٠٠٩١٩ - الفاكس: ٥٦٠١٣١٩-٥٦٠١٢٦٧

برقياً: رابطتة - مكة، تلكس: ٥٤٠٠٠٩ و ٥٤٠٣٩٠

www.themwl.org

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الثقافة كلمة رنانة يتردد صداها فتسمعها الآذان في كل أرجاء المعمورة، من خلال مؤسسات رسمية محلية وإقليمية ودولية، فلكل دولة وزارة تعرف بوزارة الثقافة - باستثناء الولايات المتحدة الأمريكية فيما نعلم - وهذا من غرائب الأمور؛ فأكبر ثقافة مهيمنة على ثقافات العالم ليس لها وزارة في بلدها.

وهناك منظمات ثقافية إقليمية (كالألكسو في تونس، والإيسيسكو في المغرب)، ودولية (كالیونسكو في باريس)، وثلاثتها لها اهتمام بالثقافة من جوانبها المختلفة: الدينية واللغوية، الفكرية والتراثية، الجمالية والأدبية.

والثقافة كلمة صعب ضبطها وحصرها، لذا تمنى ريموند وليامز R. Williams (١٩٧٩)، لو أنه لم يسمع بها، إذ أفرط في استعمالها في مجالات معرفية شتى كالثقافة الدينية، والشعبية، والتراثية حسب آدم كوبر A. Kupper (١٩٩٩)، «حتى أصبحت محلّ شبهات» كما قال جيمس كليفورد J. Clifford (١٩٨٨)^(١).

وللاقتراب من تحديد معناها، نتبعها لغة ثم اصطلاحاً، ثم ننظر في القضايا التي ارتبطت بها في الفكر العربي المعاصر، وهو ما يمثل معرفياً: حدودها وأبعادها.

(١) مفاتيح ص ٢٢٥.

أولاً: الثقافة لغتاً

المتبّع لكلمة «ثقافة» في المعاجم القديمة كالتّاج واللّسان، والحديثه كالمنجد والمعجم الوسيط، والمختصّة (كالمعجم الفلسفي، ومعجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، والشّامل: قاموس مصطلحات العلوم الإنسانيّة)، يجدها تتكوّن من حروف ثلاثة، هي: الشاء والقاف والفاء، وجاءت في صيغ ثلاثيّة وأخرى مزيدة: رباعيّة وخماسيّة.

معاني مادة «ثقف»:

الناظر إلى هذه الصّيغ بمختلف أوزانها، وإلى ما تفرّع عنها من مشتقات؛ يلاحظ أنّ مادة «ثقف» لها ثلاثة معان رئيسة: معنى مادّي، وآخر لا مادّي، وثالث مجازي.

أ- المادّي: الظفر والتمكّن والقبض على الإنسان أو الحيوان أو الجماد، فالثّقيف فيه معنى القيود والأغلال للإنسان، والعقال والشّكال للحيوان، والمرتاج للباب (ما يتمّ به تثقيفه أي إحكام غلقه)، والخندق للرّبض (ما يتمّ به تثقيفه أي تحصينه)، قال البكري: «ما يأخذه ثقاف الرّبض (أي تحصينه) المتّصل بالسّور الغربي ٧٤٠٠ ذراع» (منجد بلاشير: ١١٩٣/٢)، ويدخل في هذا المعنى المادّي فراهة الجسد ورشاقتة ومرونته وخفّته.

ب- اللامادّي: ويدور حول المهارة والحدق، قال الجاحظ: «للشعر صناعة وثقافة (مهارة) يعرفها أهل العلم»، وقال ابن خلدون: «التّرك أحذق النّاس بالفروسيّة والثّقافة (المهارة في استعمال السّلاح)، وأبصرهم بالرّماية» (منجد بلاشير: ١١٩٤/٢)، ويتفرّع عن المهارة

والحذق: الفهم والفتنة والذكاء والبراعة والنباهة واللباقة واللبابة (العقل)، كقولهم: «من الصناعات ما تثقفه العين (أي تدركه وتتعلمه)؛ وما تثقفه اليد» (أي ما تتعلمه وتتقنه) (منجد بلاشير: ١١٩٣ / ٢)، كما يدور سلبياً حول المكر والدهاء والاحتيا، وقد نجد من معاني التثقيف؛ ما يجمع بين المادّي والمعنوي: كالأرب: وهو المهارة الجسديّة؛ والمهارة الفكريّة.

ج - المجازي: كتثقيف النفس (السيطرة على قواها): رباطة الجأش، تعديل السلوك وتقويمه، ومن الناحية القانونيّة: تثقيف الأموال: مصادرتها.

ومما تميّز به اللغة العربيّة عن اللّغات اللاتينيّة الأصل: أنّ هناك علاقة عضويّة بين كلمة «ثقافة»؛ وكلمة «مثقّف»، فهما من نفس المادّة، بينما في الفرنسيّة - مثلاً - كلمتان: culture بمعنى ثقافة، intellectuel بمعنى مثقّف، ولا علاقة بين جذر الكلمة الأولى والكلمة الثانية^(١)، وفرق ثان بين اللّغتين: فالثقافة في الفرنسيّة تكون للإنسان بتهذيبه؛ ولالأرض بفلحها، بينما هي في العربيّة للإنسان فقط فكراً وجسداً.

(١) المسألة الثقافيّة ص ١٨.

ثانياً: الثقافة اصطلاحاً

من حيث المعنى، ومن حيث الأوجه، ومن حيث الأنواع:

١- من حيث المعنى: لها معنيان: خاص، ويشمل تنمية الملكات العقلية والوظائف البدنية (التربية البدنية)، وعام، يشمل كل ما يتصف به الرجل الحاذق المتعلم من ذوق جمالي (فني)، وحس نقدي (وعى) وحكم عقلي (منهج)، وهي التربية التي أدت إلى إكسابه هذه الصفات، ولهذا ربط (روستان) الثقافة بالعلم عندما قال في كتابه «الثقافة على مرّ الحياة»: «العلم شرط ضروري في الثقافة، ولكنه ليس شرطاً كافياً، إنما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التي أكسبنا إياها العلم حتى جعل أحكامنا صادقة وعواطفنا مهذبة»^(١). وهي الثقافة التي تؤدي إلى الملاءمة بين الإنسان والطبيعة وبين المجتمع، وبينه وبين القيم الروحية والإنسانية^(٢).

٢- من حيث الأوجه، لها وجهان:

أ- ذاتي: وهو ثقافة العقل: وتطلق على مظاهر التقدم العلمي، نقول: الثقافة اليونانية والثقافة العربية والثقافة الكلاسيكية، ونقول: امتزاج الثقافات والنشاط الثقافي، والعلاقات الثقافية والتخلف الثقافي^(٣).

(١) المعجم الفلسفي: ج ١ / ٣٧٨.

(٢) المصدر السابق.

(٣) المعجم الفلسفي: ج ١ / ٣٧٨.

ب- موضوعي: «وهو مجموع العادات والأوضاع الاجتماعية والآثار الفكرية، والأساليب الفنية والأدبية والطرق العلمية والتقنية والإحساس والقيم الذائعة في مجتمع معين، أو هو: طريقة حياة الناس وكل ما يملكونه ويتداولونه اجتماعياً لا بيولوجياً»^(١).

٣- من حيث النوع: تنقسم الثقافة بصفة عامة إلى:

أ- مادية (ملموسة): وتطلق على الوحدة الكاملة للنتاج، فتكون كلمة ثقافة مرادفة لكلمة حضارة.

ب- لا مادية (معنوية): وتشمل الأفكار الأخلاقية، والاتجاهات اللغوية، وتاريخياً مرّت الثقافة منذ بدء الخليقة بأطوار تمثل طريقة الحياة التي كان يعيشها الإنسان، فهناك طور الصيد، والطور الزراعي، والطور التكنولوجي، وفي أعلاه التكنولوجيا المعلوماتية (الإعلام المكتوب والمسموع والمرئي).

وفي المعاجم المختصة: كلمة ثقافة تربط بكلمة أخرى كمضاف ومضاف إليه، أو صفة وموصوف، فتكوّن مصطلحات جديدة:

١- التركيب الإضافي: وتكون فيه كلمة ثقافة مضافاً؛ وأحياناً مضافاً إليه:

أ- تكون كلمة ثقافة مضافة، وسنقتصر على ذكر بعضها ممّا يندرج في خدمة قيم التسامح بين (الأنا) و(الآخر)، ويمكن الرجوع إلى قاموس «الشامل» في مصطلحات العلوم الإنسانية، فقد أورد صاحبه العديد منها وعرف بها، من ذلك:

(١) المصدر السابق: ٣٧٩/١.

ثقافة الفكر: وهي التي تُبنى عليها المعرفة والعلم، وتقوم أساساً على أن الحقيقة نسبية، ولا يمكن للآخر - مهما كان علمه - ادعاء امتلاكها بمفرده.

ثقافة السلوك: وهي التي تقوم على تنمية الجانب الأخلاقي في تعامل الأنا مع الآخر، وتركز على العناصر المشتركة والإيجابية بين الثقافات.

ثقافة الحوار: وهي التي تُبنى عليها الديمقراطية، ويكون الحوار بدونها «ضرره موجود ونفعه معدوم»^(١). وفي الحضارة الإسلامية وُضعت كتب لتحديد شروط هذا النوع من الحوار وضبط أخلاقياته وقيمه، وما يُعقد اليوم من ندوات وملتقيات حول الأديان وتسامحها والحضارات ونموها، والثقافات وقيمتها؛ لا يمكن له أن يُؤتي أكله إلا بثقافة حوار ترفض الاستعلاء والهيمنة؛ وتستنكر التهميش والإقصاء.

وثقافة الحوار تقوم على مبدأ تسامح الأنا مع الآخر مهما كان الاختلاف بينهما، لأن الاختلاف حقيقة كونية وسنة الله في خلقه كما جاء في محكم الآيات، وهذا الآخر يجب أن نتعامل معه بالعقل لا بالعاطفة، نأخذ منه ونعطيه، نفيده ونستفيد منه، وقد جعل ابن رشد شعاراً لهذه العلاقة فنصحننا بأن ننظر فيما قاله غيرنا: «فما كان موافقاً للحق قبلناه منهم وسُررنا به وشكرناهم عليه، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه وعذرناهم».

وإذا كانت هذه الأنواع من الثقافة إيجابية المسعى والهدف، فهناك أخرى سلبية الشكل والمضمون، منها:

(١) ثقافة الحوار في «الرافد» ٢٠ من أبريل ٢٠١٤، ص ٣٥.

ثقافة الأنوثة: وهي ضرب من الوهم يجعل المرأة - باسم مسيطرة العصر - تعتقد أنّ حرّبتها لا تقف عند حدّ، وأنّ لها الحقّ في كشف ما تريد كشفه من أنوثتها دون احترامٍ لدينٍ؛ أو مراعاةٍ لقيمٍ أو حياءٍ.

ثقافة الرفاق: وتنشأ عادةً في محيطٍ يخرب الذّات بالمخدّرات، أو يخرب المجتمع بالتطرّف.

ثقافة (المغالبة في الحوار): وأبرز تجلّياتها ما نرى وما نسمع في بعض وسائل الإعلام السّميّة والبصريّة في الدول العربيّة، إذ تتحول ثقافة الحوار إلى «صراع وصرّاخ»، غايتها فقء عين المحاور بتركيعة وإذلاله، ومنطلقها: سوء الظنّ بالغير؛ وتعميق الهوة بين طرفي الحوار؛ وطمس كلّ ما يقرب بينهما؛ وإظهار كلّ ما يفرّق.

ب- تكون كلمة ثقافة مضافاً إليه، ونقتصر على ذكر الأمثلة التالية:

علم الثقافة: وهو «العلم الذي يدرس الظواهر الثقافيّة دراسةً علميّةً وصفيّةً وتحليليّةً بنايّةً ووظيفةً»^(١).

تاريخ الثقافة: والمقصود: «الصّور التكامليّة للأحداث الثقافيّة التي ظهرت خلال الزّمن، وقد ظهر هذا المصطلح بين علماء الآثار الذين يركّزون على بحث تاريخ الثقافة من خلال منظور زمني»^(٢).

نسبيّة الثقافة: تقوم على أنّ لكلّ ثقافة ما يميّزها عن غيرها، ويترتّب عليه أنّ بعض المجتمعات تميّز ثقافتها بالطّابع المادّي؛ أو التّقدّم الصّناعي

(١) الشّامل: ص ١٣٨.

(٢) المصدر السابق.

والتكنولوجي؛ كما في مجتمعات غرب أوروبا وأمريكا والاتحاد السوفياتي، بينما بعضها الآخر تتميز ثقافته بالطابع الروحي كما في الحضارة الهندية، وقد تجمع بين الأمرين كما في الحضارة الإسلامية العربية^(١).

٢- التركيب الوصفي:

أ- وتكون فيه كلمة ثقافة موصوفاً، وعلى سبيل المثال هناك:

ثقافة قيمية: وهي ما به تتشكل القيم الأخلاقية في الثقافة^(٢).

ثقافة سياسية: كل ما يتعلّق بنظام الحكم من أفكار وإيديولوجيات، ومعايير واتجاهات^(٣).

ثقافة شفهية: وهي ثقافة تنتقل عن طريق اللسان، كالأمثال والأحاجي (الألغاز) والحكم^(٤).

ثقافة تكاملية: وهي الجزء غير المادي من الثقافة، الذي يتكيّف مع التغيرات الاجتماعية^(٥).

ثقافة دينية: وتقوم على مبدأ التسامح لا التعصّب، والإقناع لا الغلبة، والاختلاف لا العدا.

(١) المصدر السابق (بتصرّف).

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٩ (بتصرّف).

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٩ (بتصرّف).

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٩ (بتصرّف).

(٥) المصدر السابق، ص ١٣٩ (بتصرّف).

ثقافة تكيفية: وهي الجزء غير المادي من الثقافة الذي يتكيف مع التغيرات في الثقافة المادية.

ثقافة مهيمنة: هي الثقافة المسيطرة، وهي اليوم ثقافة الغرب بصفة عامة؛ وأمريكا بصفة خاصة، ورغم ما في هذه الثقافة من إيجابيات مادية، لكنها مُصابة بداء الاستعلاء والغطرسة، وتكون لمن يخالفها صوراً نمطية تروجها بوسائل إعلامها الرهيبة، ومن أشبع هذه الصور: ما رسمه الغرب ويرسمه إلى اليوم من صور نمطية عن الثقافة العربية الإسلامية، وقد وقع التركيز على أهم مقوم فيها وهو الدين، فأصبحنا - وبخاصة بعد سقوط الاشتراكية بسقوط الاتحاد السوفياتي - نقرأ ونسمع ونرى يومياً ما يسمونه: زُهاب الإسلام *L'islamophobie*، لاستفزاز شريحة كبرى من المجتمع الإسلامي غير الواعية، ومن الخطأ أن ينجر المسلمون إلى الفخ الذي نصبه لهم الغرب بمواجهة هذه الصور النمطية؛ بالعنف ضد سفاراته ومؤسساته ومصلحه، وإنما يجب مواجهتها بالمنطق نفسه الذي يدعونه، إنهم يرون في رسومهم الكاريكاتورية وأفلامهم ضرباً من الإبداع، ولتقارن إبداعهم هذا بإبداع كبار شعرائهم وفلاسفتهم في الماضي والحاضر، ليتضح لكل ذي لب سليم وذوق رفيع أن إبداعهم الحالي هو ضرب من هذيان سفهائهم طلباً للشهرة والمال^(١).

ويندرج ضمن هذه المصطلحات التي تكون فيها كلمة «ثقافة» موصوفاً؛ مصطلحات ليست في حاجة إلى تعريف، لأن لفظها دال على معناها، مثل: الثقافة التراثية، الثقافة الجماهيرية، الثقافة الشعبية، الثقافة المحلية، الثقافة القوية، الثقافة العرقية، الثقافة الخليعة،... إلخ.

(١) زُهاب الإسلام، ص ٥ وما بعدها.

ب- وتكون فيه كلمة ثقافة صفةً، والأمثلة على ذلك كثيرة؛ نقتصر منها على ما يلي:

تكامل ثقافي: وهو اتصال الأنماط الثقافية بعضها ببعض، بحيث يتكوّن من مجموعها «كلُّ ثقافي مترابط»، ويؤدّي انعدام التكامل الثقافي بالنسبة إلى الأفراد أو الجماعات أو الشعوب إلى الفوضى والاضطراب، وإلى مشكلات نفسية واجتماعية، وأنواع من الصراع يحول بين الجماعة وتطورها تطوراً سوياً^(١)، وعدم التكامل الثقافي هو الذي أدّى إلى ما يحدث في بعض الدول العربية اليوم من صراع بين الأحزاب، وبين القبائل، وبين الطوائف، وبين الأعراق.

صراع ثقافي: هو صراع عقلي بين أمتين أو شعبين أو مجموعتين، يزوّد الطرفين بمعايير سلوكية متناقضة ومتعارضة^(٢).

تقارب ثقافي: عكس المصطلح السابق، ويشير إلى عناصر ثقافية متشابهة في منطقتين جغرافيتين مستقلّتين في ثقافتين مختلفتين، وقد يؤدّي التقارب إلى تكامل بين ثقافتين^(٣).

تغيّر ثقافي: يحدث في جانب من جوانب الثقافة المادية أو اللامادية؛ بالإضافة أو الحذف أو التعديل^(٤).

حتمية ثقافية: نظرية مفادها «أنّ السلوك الإنساني يحدّد بصورة أساس

(١) الشامل: ص ١٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص ١٣٥ (بتصرّف).

(٣) المصدر السابق، ص (بتصرّف).

(٤) المصدر السابق، ص ١٣٥ (بتصرّف).

بواسطة العوامل الثقافية^(١)، والحتمية الثقافية هي القول بأن الحضارة تولد الحضارة بمعزل عن العوامل الطبيعية المؤثرة في سلوك الإنسان وعمله^(٢).

بدائل ثقافية: هي استخدام وسائل متباينة لتحقيق أهداف متشابهة^(٣).

تراكم ثقافي: هو تدعيم ثقافة معينة عن طريق إضافة عناصر جديدة للعناصر الثقافية القائمة، مثل الأدوات والتصوّرات والمهارات والأفكار، ويكون ذلك عبر الأجيال^(٤).

ثورة ثقافية: تحوّل فكري جذري حاسم في النظرة إلى الحياة والعلاقات الإنسانية، مرتبط بالنضال والتّقدم^(٥)، وأعظم ثورة راشدة عرفها التاريخ: ثورة العقيدة التي جاء بها محمد ﷺ في جزيرة العرب.

نمط ثقافي: كلّ ثقافة تتكوّن من نظم اقتصادية ودينية وعائلية وسياسية وأخلاقية ولغوية وعادات وتقاليد، وكلٌّ منها له أنماط معينة، ومن أهمّ الأنماط الثقافية: الأنماط الدينية، وأخطرها حين يضع (الأنا) تصوّراً نمطياً مخطئاً في ذهنه عن (الآخر) المخالف، والتعامل معه حسب ذلك التصوّر، والإسلاموفوبيا (رهاب الإسلام) من أبرز مظاهر هذا التعامل المقيت الذي أدّى إلى وضع الإسلام في نظر بعض مفكرّي الغرب عدوّاً أوّلاً لهذا الغرب بعد

(١) المصدر السابق، ص ١٣٦.

(٢) المعجم الفلسفي: ١/ ص ٣٧٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الشّامل، ص ١٣٥.

(٥) المصدر السابق، ص ١٣٧.

سقوط الاشتراكية بسقوط الاتحاد السوفياتي^(١).

تخلّف ثقافي: وضع تتغيّر فيه عناصر ثقافية بمعدّلات أسرع من تغيّر الجوانب الأخرى^(٢).

انتقال ثقافي: عملية تنقل الثقافة من جيل إلى آخر عن طريق التّعليم، سواءً تمّت بطرق رسمية أو غير رسمية.

نقد ثقافي: تشخيص إخفاقات المجتمع وعيوبه^(٣).

هذه التراكيب الأربعة الإضافية والوصفية - وقد أصبحت مصطلحات - تدلّ على أن كلمة «ثقافة» تأخذ في كلّ حقل معرفي أو دلالي تُنسب إليه معنىً خاصاً يُضاف إلى معناها الأوّل المتشعب والزّبقي^(٤).

(١) رُهاب الإسلام، ص ٥، ص ٩.

(٢) الشّامل، ص ١٣٦.

(٣) مفاتيح اصطلاحية، ص ٢٢٩.

(٤) المسألة الثقافية، ص ٢١ (بتصرّف).

ثالثاً: الثقافة في الفكر العربي المعاصر

قامت قواميس اللّغة ومعاجمها - كما رأينا في العنصر الأوّل والثاني من البحث - بتحديد كلمة ثقافة لغةً واصطلاحاً، ومن مجموع ما تحدّد من معانيّ فيها حاول المؤرّخون والمفكّرون والفلاسفة ضبط هذه الكلمة من حيث العناصر والمركّبات، ومن حيث الأقسام والاتّجاهات، ومن حيث الأهداف والغايات.

١ - عناصرها: فمن حيث العناصر والمركّبات قال محمّد عابد الجابري: «الثقافة هي ذلك المركّب المتجانس من الذكريات والتصورات، والقيم والرموز، والتعبيرات والإبداعات التي تحافظ لجماعة بشريّة - تشكّل أمةً أو ما في معناها - على هويّتها الحضاريّة في إطار ما تعرفه من تطوّرات بفعل ديناميكيّتها الداخليّة وقابليّتها للتواصل والأخذ والعطاء»^(١)، أو «هي المعبر الأصيل عن الخصوصيّة التاريخيّة لأمة من الأمم، وعن نظرة هذه الأمة إلى الكون والموت والحياة، والإنسان ومهامّه وقدراته وحدوده وما ينبغي أن يعمل وما ينبغي أن يأمل»^(٢)، وبأكثر تبسيط ووضوح: الثقافة «هي المركّب الذي يضمّ المعرفة والاعتقاد والأخلاق والقانون والأزياء وكلّ الملكات الأخرى والعادات والتقاليد التي يكتسبها الإنسان من حيث هو عضو في المجتمع»^(٣).

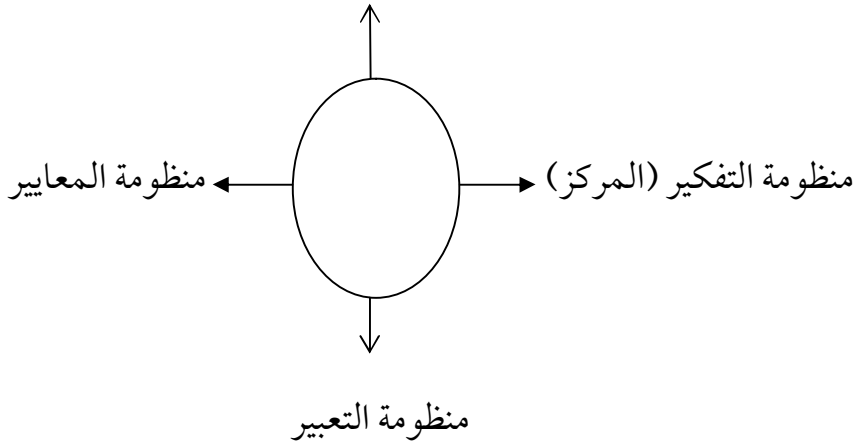
(١) المصدر السابق، ص ٢١٣.

(٢) المصدر السابق.

(٣) مفاتيح، ص ٢٣٢.

٢- أقسامها: ومن حيث الأقسام والاتجاهات؛ تتفرّع الثقافة إلى مجموعة من المنظومات المتداخلة بعضها ببعض، المؤثرة بعضها في بعض: منظومة التفكير (وهي المركز)، ومنظومة المعايير، ومنظومة التعبير، ومنظومة السلوك والعمل التي تحتويها جميعاً كما في الشكل التالي:

منظومة السلوك والعمل (الشاملة)



فباعتبارها مركزاً: هي التربية التي بها تنمو أساليب الفكر، وباعتبارها شاملة محتوية: «هي طريقة معيّنة للناس في الحياة»^(١).

٣- أهدافها: أمّا من حيث الأهداف المباشرة؛ فالثقافة تسعى بصفة مستمرة -حسب عبارة الجاحظ - لغرس «إرادة الفكر والتدبّر»^(٢) لدى الفرد، وبالتالي في المجتمع الذي ينتمي إليه، وبهذه الإرادة يعرف الأنا جذوره في الماضي البعيد والقريب، ويعرف في الحاضر: خطوط الطول والعرض لموقعه في خريطة العالم المعرفية (العلم)؛ والأخلاقية

(١) المعجم الفلسفي: ١/ ص ٣٧٩.

(٢) صورة الآخر، ص ٣.

(القيم)؛ والجمالية (الدوقيات)، ليحدّد عن وعي دوره الحضاري في المستقبل، ومن حيث غاياتها القصوى: تسعى الثقافة إلى خلق منظومة قيم إنسانية، أعلاها: التسامح بين الأنا والآخر في محاولة للسموّ بالإنسان إلى إنسانيته؛ وتعالیه عن حيوانيته (الجانب البيولوجي).

٤ - قضاياها: ومن خلال هذه العناصر والأقسام والأهداف، تبرز في الفكر العربي الإسلامي المعاصر بعض القضايا والإشكاليات لها صلة متينة بالثقافة، من أهمها:

أ- التّكامل الثقافي: يجب الإقرار بأنّ كلّ ثقافة - في الماضي أو الحاضر - هي ثقافة هجينة، أي أنّ هناك عناصر (دماء) تسري في عروقها من ثقافات أخرى^(١)، والهجينة الثقافية ليست عيباً كما هو الحال في أنساب الخيل، والنقاء الثقافي ليس ميزة كما هو الحال في الأنساب القبليّة.

إنّ الهجينة الثقافية هي المثاقفة أو التّكامل الثقافي، وبه تصبح الثقافة حيّة متجدّدة دون أن تفقد هويتها وخصوصيّتها^(٢)، كمنحلة تمتصّ رحيق أزهار مختلفة وتصنع منه عسلاً له نكهة الزهرة الغالبة في غذائها (وتلك هي الهوية)، أو كبحيرة يأتيها الماء من جداول تنصبّ من أعالي الجبال وأقاصيها في الزّمان والمكان، فتجعل من مائها الأيسن ماءً زُلالاً عذباً، وعكس ذلك صحيح، فكلمّا انكفأت ثقافة على نفسها ازدادت تقويعاً وجموداً، وجمودها سيؤدّي حتماً إلى هشاشتها، وبالتالي تكون هدفاً سهلاً للغزو الثقافي.

(١) الثقافة والامبريالية، ص ٢٤ (بتصرّف).

(٢) المصدر السابق، ص ٣٤ (بتصرّف).

ب- الغزو الثقافي: الثقافة - من حيث الغزو الثقافي - في عالمنا المعاصر على أنواع ثلاثة:

- ثقافة المركز: وهي ثقافة مهيمنة غازية قويّة ومسيطرة، وتمثلها ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية باقتصادها الرأسمالي، وتوسّعها الإمبريالي، وخاصّة بعد سقوط الاتحاد السوفياتي، وهي - حسب إدوارد سعيد - ثقافة تكشف عن نظرة الغرب «الحاقد، المتعالي، اللاإنساني، المشبع بروح العنصريّة والتفوّق والاستغلال الاقتصادي»^(١).

- ثقافة الوسط: وهي ثقافة غازية ومغزّوة بحسب الطّرف الذي تتعامل معه: فهي غازية بالنسبة إلى ثقافة الأطراف، وأغلبها يدور في فلكها الاقتصادي والعلمي، ومغزّوة من طرف ثقافة المركز التي هي أقوى منها معرفياً واقتصاديّاً، والغرب من يمثل هذه الثقافة التابعة من جهة، المتبوعة من جهة أخرى، فهو مُخترق ثقافياً من أمريكا.

- ثقافة الأطراف، ومن بينها الثقافة العربيّة: وهي ثقافة مُخترقة اختراقاً مزدوجاً من ثقافة الغرب المستعمر ومن ثقافة أمريكا الإمبرياليّة^(٢)، ومما زاد الطين بلة أنّ هذا الغرب الأوروبي الأمريكي أصبح يملك وسائل إعلاميّة رهيبية في أرجاء عالم أصبح قرية صغيرة، لنشر ثقافته خدمة لمصالحه الاقتصادية وإيديولوجيّاته السياسيّة، فكان اختراقه لثقافة الأطراف متنوعاً متجدّداً يغزو العقول والخيال والعاطفة

(١) المصدر السابق، ص ١٤.

(٢) المسألة الثقافيّة، ص ١٧١ (بتصرّف).

والسلوك والذوق والعادات، فمسّ الإنسان فكراً وجسداً وروحاً، ولم يكتف بذلك، فمن الناحية الاقتصادية الصّرفة، قام بإغراق أسواق العالم الثالث بسلعه الاستهلاكية بثمن باهظ بعد أن اشترى الموادّ الأوليّة منه بثمن بخس، ففضى على الصناعات المحليّة، ولحرمان هذا العالم من التطوّر: منع تصدير التّقنية الحديثة إليه، وسمح فقط بنوع واحد منها هي الملوّثة للبيئة والمحيط^(١).

إن الغزو الثقافي أخطر من الغزو العسكري، فهذا الأخير يُخضع الأجساد، والأول يُخضع النفوس للسيطرة على الإدراك وتسطيح الوعي وتعطيل العقل وقولبة السلوك وتمييط الذوق بتكريس الرغبة المُلحّة في الاستهلاك، ومنع كلّ توقّ إلى المشاركة في الإنتاج الصّناعي، وهكذا تنتفي كلّ رغبة في التّمنية والادّخار، وينتهي الأمر إلى الاستسلام للجهات المسيطرة والمستغلّة والمتسلّطة من دول وشركات وبنوك.

لقد وسّع الغزو الثقافي بين التقليدي والعصري في ثقافتنا، فسادت القوالب الجاهزة التّراثيّة والحداثيّة على حساب الفكر العلمي والعقل الواعي، فأصبح أهل الأصالة يكرهون كلّ ما هو عربي بحجّة المحافظة على الهويّة، وأهل التّغريب يكرهون كلّ ما هو عربي بحجّة اللّحاق بركب الحداثة، وهكذا تُكبّل الثقافة عوض أن تُحرّر، وتُحرم من خلق فكر مستقلّ مبدع «يجعل من الاتّصال

(١) خير نموذج على ذلك: المعمل الكيميائي بمدينة قابس التّونسيّة، فهو معمل من النّاحية التّقنيّة مبهر، ولكنّه لوّث الماء والهواء والتربة في محيط شاسع من الأرض، أمّا البحر في خليج قابس - مبيّض الأسماك عبر العصور - فقد أصبح صحراء قاحلة بعد زوال الأعشاب من قعر البحر.

والتواصل مع الثقافات الأخرى عنصر إخصاب وإغناء لا عامل استلاب واستسلام»^(١).

إن مقاومة الغزو الثقافي والمحافظة على الهوية لا يعني الانغلاق والتقوقع ضد هذه الثقافة الغازية أو تلك، بل التعرف على أسس تقدم هذه الثقافة الغازية، والعمل على نقل بذورها إلى تربتنا الثقافية معرفياً ومنهجياً^(٢)، وخير نموذج على ما نقول: ثقافة اليابان والصين، فمشاركتها الحضارية لم تُفقداهما خصوصيتهما الثقافية، فأنجبت الثقافتان عقولاً مستقلة هي نقيض العقول التابعة للغرب، أو المتوقعة في التراث^(٣).

ج- الثقافة والعلم: الثقافة بعدها الإيجابي للإنسان والمجتمع والشعوب؛ هي ما يؤسس العلم، وبالنسبة إلى الشعوب التي تسعى لتحقيق التنمية؛ لا بدّ فيها من دمج العلم في الثقافة وتلقيح الثقافة بالعلم، ويتم ذلك عن طريق المؤسسات التربوية؛ ووسائل الإعلام النزيهة والحرّة.

ومؤكّد أنّ الوعي العقلي والاتزان النفسي هو نتيجة هذا التكامل بين العلم والثقافة، قال روستان: «العلم شرط ضروري في الثقافة، ولكنّه ليس شرطاً كافياً، وإنما يطلق لفظ الثقافة على المزايا العقلية التي أكسبنا إيّاها العلم، حتّى جعل أحكامنا صادقة وعواطفنا مهذّبة»^(٤).

(١) المسألة الثقافية، ص ٢٣٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٠١ (بتصرّف).

(٣) بدأت النهضة في مصر (في عهد محمد علي) واليابان؛ تقريباً في نفس الوقت (النصف الأوّل من القرن ١٩)، لكن شتّان ما بين البلدين اليوم في المستويين المعرفي والحضاري.

(٤) المعجم الفلسفي: ١ / ٣٧٨، والقولة مقتبسة من كتاب روستان: الثقافة عبر الحياة

والعلم والتّقنية لا يدخلان في مكوّنات الاختراق الثقافي - بحسب د. محمّد عابد الجابري - ولا يمكن اعتبارهما غزواً لها وإضعافاً، بل بالعكس هما عاملان في إخصاب هذه الثقافة، بشرط ألا يُكتفى باستهلاك ثمراتها دون الأخذ بسبل إنتاجها منهجياً ومعرفياً^(١).

لكن يجب الحذر كلّ الحذر من «أن تطغى العقلية العلميّة والتكنولوجيا - على شدّة احتياجنا إليهما - فتطمس في نفوس الأجيال الصّاعدة معاني التّراث وقيم الرّوح ومنازع التّوق إلى الإنسان الأكمل، فترتدّ إلى حضيض المادّة»^(٢).

د- الثقافة والحضارة: الثقافة والحضارة عند بعض العلماء وبعض الشعوب - كالشعب الألماني - كلمتان مترادفتان، وعند بعضهم الآخر مختلفتان، فالحضارة بعدها الدّاتي: مرحلة سامية من مراحل التطوّر الإنساني، وبذلك تكون مقابلة للتوحّش والهمجيّة، وبعدها الموضوعي: «جملة من مظاهر التقدّم العلمي والتّقني والصّناعي، أمّا الثقافة فتُطلق على تنمية العقل والدّوق، أو هي نتيجة لهذه التّمية»^(٣)، ومن ناحية أخرى؛ الحضارة هي معيار للكمال النّفسي بإنتاجها الأدبي والدّوقي، لذا فإنّ للثقافة دوراً مهمّاً في مراقبة عيوب الحضارة وإصلاحها، وذلك بنشر القيم السّامية والمُثل العليا في المجتمع^(٤)، وبهذا الدّور تعود إلى معناها اللّغوي الأوّل، وهو إصلاح المعوجّ وتقويمه، وقد يرى قسم ثالث أنّ الثقافة والحضارة متكاملتان، فعندما

(١) المسألة الثقافيّة، ص ١٨٠ (بتصرّف).

(٢) الثقافة رِهان حضاري، ص ٢١.

(٣) المعجم الفلسفي: ٤٦٦/١ (بتصرّف).

(٤) مفاتيح، ص ٢٣٠ (بتصرّف).

نقول: حضارة يونانية؛ فأهم ما في صلبها: الثقافة اليونانية، وقس على ذلك الحضارة العربية أو الهندية أو الصينية.

هـ- الثقافة والتراث: من أهم مقومات الهوية الثقافية: الدين واللغة والتراث (الماضي المشترك)، بصنفيه المادي واللامادي، وكل ثقافة تعود إلى تراثها لحماية نفسها بنفسها، فالتراث يقوم بدور اللقاح ليقوي جهاز المناعة فيها ضد الأمراض والأوبئة التي تحملها الثقافة الغازية والمخرقة، وأهم مكونات اللقاح نجدها في التراث بعد قراءته قراءة واعية وبِعقل راشد ونظرة فاحصة تؤدي إلى استثماره^(١)، وبذلك يكون التراث عنصر دفع إلى الأمام لا عنصر جذب إلى الوراء، ويكون مضاداً حيوياً نواجهه به ما لا يتلاءم مع ذاتنا وهويتنا وقيمنا.

وإذا عدّ التعامل مع التراث دون وعي منضبط ومنهج راشد خطراً، فالأخطر منه الدعوة لنبذه والتخلص منه، والثقافة الحقّة تتطلب إعادة ترتيب العلاقة بيننا وبين التراث، فلا نتجمل به دون فحص فنسقط في ثقافة التقليد الأعمى، وتتطلب أيضاً ترتيب العلاقة بيننا وبين المعاصرة، فلا ننساق إليها ونُبهر بها دون وعي، فنقع في ثقافة التبعية^(٢).

وكما أن الطيران لا يكون بجناح واحد؛ «فلا ثقافة بمجرد الوفاء للماضي؛ والاكتفاء بأمجاده، بل بتحوّل الوفاء إلى عزم على الانطلاق من التراث إلى المستقبل، وتلك أجمل معاني الوفاء للتاريخ والتراث»^(٣).

(١) المسألة الثقافية، ص ٢٨٦ (بتصرّف).

(٢) المصدر السابق. (بتصرّف).

(٣) الثقافة رهان حضاري، ص ١٤.

وللأسف نجد في المجتمع العربي من يتخذون الثقافة الغربية صنماً مبهراً، لا يعرفون إلا شكله ومظهره، ويرون الثقافة التقليدية شيئاً غير ذي بال، موصوفاً بالبشاعة والقبح.

و- الثقافة والتطرف: الأسوأ أن يصبح اللجوء إلى التراث مولداً لثقافة التطرف، التي تقوم على تغييب العقل النقدي لحساب العقل النمطي الجامد والعقل الأسطوري الخرافي الواهم^(١)، وبهما تنساق إلى الغلو في العقيدة والانزلاق خارجها، خاصة بعد أن ارتدت هذه الثقافة زياً الإيديولوجية السياسية، والأمثلة من تاريخنا المشترك عديدة، ذكر الدكتور محمد عابد الجابري بعضها، كقول نجدة بن عامر الحنفي في إحدى خطبه: «من زنى فهو كافر، ومن سرق فهو كافر، ومن شرب الخمر فهو كافر»، ولا ندري على أيّ دليل اعتمد صاحب هذه المقولة؟ وكقول نافع بن الأزرق: «من تقاعد ولم يخرج لقتال عليّ بعد حادثة التحكيم فهو كافر!» بينما نجد في القرآن عتاباً فقط لمن تقاعس ولم يخرج للقتال في غزوة بدر^(٢)، وهكذا تلبس ثقافة التطرف - تمويهاً - جلباب الدين، وتلوح - زوراً - بيد المثل العليا والقيم السامية^(٣).

ومن جهة أخرى يجب الاعتراف بأن جرثومة التطرف تنشأ وتتكاثر في مستنقع القهر والفقر والحرمان، وهي لا تقاوم بالعنف، بل بقطع أسبابها لوقف نموها وتكاثرها بالقضاء على الفقر المادي والبؤس النفسي، والانحراف

(١) المسألة الثقافية، ص ١٦٥ (بتصرف).

(٢) المصدر السابق، ص ١٤٨ (بتصرف).

(٣) المصدر السابق، ص ١٣٤ (بتصرف).

الأخلاقي والظلم الاجتماعي، والحيث الاقتصادي والاستبداد السياسي،
والاستشعار بضرورة تنفيذ برامج الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي والسياسي
في المجتمعات التي ظهرت فيها ثقافة التطرف.

الخاتمة

إنّ الواقع الاجتماعي اليوم في كلّ الأمم؛ ثلاثي الأبعاد: فله بُعد اقتصادي يمكن تحديده بتطور الظاهرة الاقتصادية، وبُعد سياسي هو أرض مية بحاجة إلى حرائة فعلية، وبُعد ثقافي عَسُر تحديده لكثرة عناصره وتفاعلها في الزّمان والمكان^(١)، لذا قال الدكتور سمير أمين: «إنّ المجال الثقافي ما يزال محفوفاً بالأحكام العاطفية أو المسبقة، والرّوى الرومانطيقية، وسوف يظلّ الأمر على هذا النمط إلى أن تقطع المعرفة العلمية في مجال الثقافة خطوات بعيدة لم تقطعها بعد»^(٢). والثقافة لا تعني إحلال المثقفين محلّ رجال السياسة أو الاقتصاد أو العلم، ولا تعني جعل التأمّلات الثقافية والمشاكل الفكرية تنوب عن الممارسة السياسية والفعالية الاقتصادية والمعرفة الأكاديمية^(٣)، والخلط في هذه المجالات هو الذي جعل بعض الدول العربية تسقط في ضباب سياسي؛ وانخرام أمني؛ واخلل اقتصادي.

إنّ الثقافة الحقّة هي التي تخلق ضرباً من التوازن بين ما هو تراثي وما هو حديث، وينبغي نزولها من برجها العاجي في الكتب والمجالات، فنجعلها بقسميها التقليدي والعصري في تناول جميع الطبقات الاجتماعية، فإذا وصلت إلى الطبقة الشعبية منها، كانت عنصر تنمية قلّ نظيره، لكنّ هذا لن يتحقّق إلاّ بالقضاء على الأمية في رحاب هذه الطبقة، وإنشاء المكتبات العامة والخاصة للشيوخ والكهول، للشباب والأطفال.

(١) نحو نظرية للثقافة، ص ٧ (بتصرف).

(٢) نحو نظرية للثقافة، ص ٨.

(٣) المسألة الثقافية، ص ٢٤٠.

الثقافة الحقّة هي ما تروّج له رابطة العالم الإسلامي في ندواتها المتتالية من قيم إنسانيّة خالدة، وأعلاها قيمة التسامح، وما تقدّمه لنا من نموذج للمثقف بكلّ أبعاده الدنيّة - الروحيّة والأخلاقيّة - السلوكيّة: من طهارة نفسٍ ونقاوة ضميرٍ وبعده نظرٍ ورحابة صدر^(١).

وأظهرت بحوث ندوات الرابطة أن المثقف الحقّ هو من يحسن الظنّ بالآخر؛ فلا يرى في الاختلاف معه عداوة تؤدّي إلى مقاطعته أو إقصائه، وهو بتواضعه لا يرى في قوله إلا صوابا يحتمل الخطأ، وفي قول الآخر خطأ يحتمل الصواب، لأنّ الحقيقة نسبيّة لا يستطيع أحد أن يدّعي امتلاكها بمفرده^(٢)، وهذا المثقف إذا حاور جعل غايته تضيق مجال الاختلاف بين الأنا والآخر من جهة، وإبراز عناصر الوفاق بينهما من جهة أخرى^(٣).

والمثقف الحقّ هو الذي ينشر الوعي ويخطط للمستقبل ويقود المجتمع نحو الأفضل، وذلك بالاشتراك في إنتاج المشروع المجتمعي في مجالٍ معيّن من مجالات احتياجات إقامة المشروع^(٤)، وقدوة المثقف في القديم والحديث رسول المحبّة والتسامح محمد بن عبد الله ﷺ، فقد وضعه مفكرو الغرب ومبدعوه على رأس مائة شخصيّة علميّة كان لها أعظم الأثر في هداية البشر.

(١) مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي: المجلد ١، ص ١٥ وما بعدها.

(٢) مجلّة دراسات أندلسيّة، العدد ٤٠، ١٤٢٩/٢٠٠٨، ص ٧ وما بعدها.

(٣) مجلّة دراسات أندلسيّة، العدد ٤٠ - ١٤٢٩/٢٠٠٨، ص ٣ وما بعدها.

(٤) نحو نظريّة للثقافة، ص ١٧١.

المصادر والمراجع

- عبد الباقي، محمّد فؤاد: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ط. القاهرة ١٣٦٤ / ١٩٤٤.
- ونسك: المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، ط. إسطنبول ١٩٨٨.
- أمين سمير: نحو نظرية للثقافة، ط. ١، (معهد الإنماء العربي) ١٩٨٩.
- الأمين شريف يحيى: معجم الألفاظ المثناة، ط. ١، بيروت ١٩٨٢.
- بلاشير رجي: المنجد عربي - فرنسي - إنجليزي، ط. باريس ١٩٧٠.
- بينيت طوني: مفاتيح اصطلاحية جديدة: معجم مصطلحات الثقافة والمجتمع، ط. ١، بيروت ٢٠١٠.
- الجابري محمّد عابد: المسألة الثقافية في الوطن العربي، ط. ٢، بيروت ١٩٩٩.
- الخضراء، عبد العزيز: ثقافة الحوار، مجلة الرّوافد، العدد ٢٠٠، أبريل ٢٠١٤.
- رضا أحمد: معجم متن اللّغة، ط. بيروت ١٩٥٨.
- سعيد إدوارد: الثقافة والإمبريالية، تعريب كمال أبو ديب، ط. ٢ / ١٩٩٨ (دار الآداب).
- شيخة، جمعة: حوار بلا حدود (حصاد سنة ١٤٢٩ / ٢٠٠٨)، في مجلة دراسات أندلسية: العدد ٤٠، لسنة ١٤٢٩ / ٢٠٠٨.
- شيخة، جمعة: الحوار ومستقبل الإنسانية، نشر بمجلة دراسات أندلسية: العدد ٤٠ سنة ١٤٢٩ / ٢٠٠٨.
- شيخة، جمعة: ومُنجي الشملي: رُهاب الإسلام، ط. تونس ٢٠١٢.

- شيخة، جمعة: مؤتمرات رابطة العالم الإسلامي في خدمة القضايا الإسلامية: حدودها وأبعادها، نشر في أبحاث المؤتمر العالمي الأول عن جهود المملكة العربية السعودية في خدمة القضايا الإسلامية، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ١٤٢٩ / ٢٠٠٨.
- الصّالح مصلح الشّامل: قاموس مصطلحات العلوم الإنسانيّة، ط. دار عالم الكتاب- الرياض ١٤٣٠ / ١٩٩٩.
- صليبا جميل: المعجم الفلسفي، ط. لبنان بدون تاريخ.
- عامر (بن) توفيق: صورة الآخر في الثقافة العربيّة الإسلاميّة، أعمال ندوة في إطار وحدة البحث «حوار الثقافات»، من ١٢ - ١٤ / ٠٤ / ٢٠٠٧، ط. تونس ٢٠١١.
- القليبي، الشاذلي: الثقافة رهان حضاري، ط. تونس ١٩٧٨.
- الكرمي حسن سعيد: الهادي إلى لغة العرب، ط. ١٩٩١، ١.
- مصطفى إبراهيم: المعجم الوسيط، ط. إسطنبول ١٩٨٤.
- ابن منظور: لسان العرب، ط. بيروت ١٩٨٨.
- نجّار فريد جبرائيل: قاموس التربية وعلم النفس التربوي، ط. بيروت ١٩٦٠.
- الهلالي، أسماء: الثقافة وعلاقتها بالسياسة في مقدّمة ابن خلدون (بحث في مكتبة كلية الآداب بمنّوبة، رقم ٨١٨، سنة ١٩٩٣).